فتحي القاسمي *

القضية الفلسطينية في فكر الإمام الخميني

والشيخ محمد صالح النيفر

(الصفحات ١٦٧- ١٨٦)

تقترن لفظة عتوّ التي وردت في القرآن سبع مرات [١] بالاستكبار وتجاوز الحد كما يؤكد صاحب *لسان العرب* [٢] وارتبط أيضًا سوء المصير بتلكم الآيات، فالذين عتوا واستكبروا وتجبروا في أمورهم ﴿أَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ وارتباط العتو بالاستكبار واللجاجة دليل هشاشته وبطلانه وهو ما يكفي لنفور النفوس منه كما في قوله تعالى: ﴿بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ وقد أغرانا باتخاذ هذا العنوان للمداخلة تردّد هذه اللفظة في حديث الشيخ الزيتوني محمد الصالح النيفر (١٩٠٢-١٩٩٢) عن الغرب كما أننا وجدنا مرادفات لها في خطب الإمام الخميني ومقالاته من قبيل الوصاية على الشعوب ونير سلطة الدولة الكبرى....

إنّ تناولهما للعتو الغربي تناولاً نقديًا حادًّا وحانقا أملته المكائد التي تعرض لها المسلمون عبر التاريخ وخصوصا في أواخر القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين، ولا خفاء أن الحروب التي دارت رحاها في العراق و إيران والكويت

---

* - باحث تونسي.

والحرب في أفغانستان وانصباب ظاهرة الحرب ضد "الإرهاب" على العالم الإسلامي وتنامي الحملات المشهّرة بالإسلام والمسلمين وتعاظم الإسلاموفوبيا، من أهم الأسباب التي تدفع المسلمين إلى تنبيه العالم إلى الوجه الآخرللغرب الملوّح بالديمقراطية والمواطنة وحقوق الإنسان.

القسم الأول: العتو الغربي في فكر الإمام الخميني :

كان الإمام الخميني شديد الوعي والمواكبة لأشكال كثيرة من العتوّ والاستكبارالتي كانت تمارس من جهة في إيران زمن الشّاه، وكان نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية و إسرائيل متفاقمًا وقد طال كل القطاعات، وأخرى مستشرية في العالم وتُجسمها العولمة الثقافيّة والاقتصاديّة والسياسيّة، وكان سلطانها على الشّعوب والأفراد شديدًا من جهة أخرى، وفي خضمّ هذا الازدحام بين الأضداد سعى الإمام الخميني إلى تقديم حلول بديلة عساها تنقذ الإنسانيّة ممّا تردّت فيه، فامتزج لديه النضال السياسي والديني من أجل الإطاحة بالنظام الشّاهي المستبدّ، بالحضّ على تقديم المشروع الإسلامي نقيضًا للرأسمالية المتهافتة الجشعة والشيوعية الحادة المتصدعة الأركان، ووجد في البديل الإسلامي قارب نجاة للإنسانيّة، يقيها من ويلات ربوبيّة السّوق (Monothéisme du marché) كما يقول روجيه غارودي (Roger Garaudy) ولذلك رصدنا كثيرًا من مواقفه على امتداد أكثرمن عشرين سنة. إنها تكشف لنا عن مظاهرالعتوالغربي وقد سعى جاهدًا إلى مقاومة ذاك العتوّ، وقدم البدائل شأنه في ذلك شأن الشّيخ الزيتوني الثائرالشيخ محمد الصالح النّيفرالذي سيرد ذكره في القسم الثاني من هذه المداخلة :

١- مظاهرالعتوالغربي في فكرالإمام الخميني :

أ- إنّه مصدر كل مصائب المسلمين :

ما انفكّ الإمام الخميني ينصّص في خطبه ورسائله وأحاديثه الصحفية وكتبه

على ضخامة المصائب التي حلّت بالمسلمين من جرّاء تألّب الأعداء عليهم لإخماد أصواتهم ونهب ثرواتهم وعرقلة يقظتهم وكان الشّعب الإيراني في عهد الشاه خصوصًا قد لحقه من ذلك ضَيْمٌ لا حدّ له بل إن «جميع مصائب شعب إيران وبقية الشعوب الإسلامية إنما مصدرها الأجانب المستعمرون وخاصة الأمريكان وأن شقاء الدول الإسلامية إنما هو بسبب تدخّل الأجانب في مقدّراتها وشؤونها وأن الأجانب هم الذين ينهبون ثرواتها الطبيعية الهائلة»[٣].

ولا يعني ذلك أن السبب الأوحد لهذا التجنّي موقوف على الغرب، و إنما استطاع الغرب توظيف عملائه وأبواقه لتمرير أهدافه الظاهرة والباطنة، فقد استعان المستعمرون «بعملاء لهم في بلادنا من أجل تنفيذ مآربهم الاقتصادية الجائرة فنتج عن ذلك أن يوجد مئات الملايين من الناس جياعًا يفتقدون أبسط الوسائل الصحية والتعليمية وفي مقابلهم أفراد ذوو ثراء فاحش وفساد عريض»[٤].

ولا تقتصر الإدانة على الولايات المتحدة الأمريكية و إسرائيل و إنما تطال الصين والاتحاد السوفياتي وكذلك بريطانيا، ويعتبر الإمام الخميني التصدّي لهؤلاء جميعًا و إحباط ما يخططونه، ضرورة لابدّ من الوعي بها، وقد باح بذلك للزعيم الراحل ياسر عرفات في رسالة بعث له بها سنة ١٩٧٩ ومما ورد فيها «أن الصين الحمراء ذات الشعارات الثورية وأمريكا النموذج العالمي لاستغلال الشعوب والسوفيات منبع الدّجل والكذب وبريطانيا العريقة في استعمار الشعوب، يتكاتفون مجتمعين على قمع أمّة ناهضة تسعى لاستقلالها وعدم انحيازها للشرق أو الغرب»[٥].

وقد تدعّم دور الغرب في اتجاه عبثي مخاتل جنّد له العاملين بوفاء، للكيد للإسلام والمسلمين. ففي هذا العصر «بثّ الاستعمار أذنابه في أرجاء العالم الإسلامي ليعملوا تحت شعارات برّاقة وأحيانًا تحت شعار الإسلام نفسه من أجل إبعاد تعاليم القرآن وثقافته عن الواقع العملي»[٦]، ولا خفاء أن تلك الحملات كان لها دور جبّار في التآمر على هويّة الشعوب الإسلامية وفي ظهور أنماط من الاستلاب

الثقافي والفكري، ولذلك ظلّ الإمام الخميني مراهنًا على الهويّة والذاتيّة الإسلاميّة حاثًا على الاستمساك بهذه العروة الوثقى اتّقاء التلاشي وضياع الشخصية.

ب- الدعوة إلى فصل الدّين عن الدولة وألْيَكَة السلطة :

لاحظ الإمام الخميني أن الدعوة الصادرة من الغرب لفصل الدين عن الدولة هدفها عزل الإسلام عن الحياة العملية للناس وأنه قاصرعن إدراك ذلك، ونعت الإمام الخميني هذه الدعوة بأنها «**الفاجعة العظمى**»[٧] ولا يخفى أن نجاح هذا الشعارفي الغرب وتراجع دورالكنيسة التي كانت أولى ضحاياه قد أغرى كثيرًا من دعاة العلمنة[٨] والأليكة[٩] والوضعنة[١٠] ومن اتبعهم من أهل الشرق بسحبه على الشريعة الإسلامية.

لقد نُكب العالم الإسلامي عبرالعصوربفئتين من المسلمين كان لهما الدور المدمّرللإسلام والمسلمين. فالفئة الأولى أساءت استخدام الدين فـ«ضللت المؤمنين به»[١١] ولاشك أن ما قام به المشككون ممن أساؤوا استخدام الدين متشابه، بصرف النظرعن الزمان والمكان ولكن فكرة التضليل والتلبيس تظل مقصدا قائمًا، وأما الفئة الثانية فإنها «أتقنت استغلاله»[١٢] ويستوي في ذلك الحكام المستبدون الذين اتخذوا الدين مطية لإضفاء الشرعية على حكمهم ووظفوا فقيه السلطان لحبك النصوص المُسوّغة لذلك، ويشهد التاريخ الإسلامي القديم والحديث ببراعة هؤلاء الاستغلاليين في التضليل والتبريروهو ما شجع الغرب على توظيفهم وحثه على الإمعان في معاداة الإسلام واستصغارالمسلمين.

ج- النهب الاقتصادي : نهب مقنن وشامل :

اتخذ الإمام الخميني من بلده إيران أنموذجًا لبيان بشاعة العتوّ الغربي وبيان تغلغله في الاقتصاد الإيراني وقد تحالف الأمريكان واليهود للمسك بأزمّة الاقتصاد فصارالاقتصاد الإيراني زمن الشّاه «في قبضة الأمريكان والإسرائيليين»[١٣] لقد كان هذا الاستضعاف لشعب بأسره عاملاً رئيسيًا في نجاح الثورة في إيران، وأحكم الإمام الخميني تحليله لهذا النهم الاقتصادي الذي خلّف

ثورة عارمة ضد الشاه والمتعامل معهم من دول وشركات اقتصادية ضخمة. ولاشك أن رفع الإمام الخميني لشعار«ثورة المستضعفين لا يقودها إلا المستضعفون» كان نقلة نوعية في المدّ الثوري الإيراني الذي قوّض منظومة الاستغلال الهشّة لثروات الشّعب الإيراني وقد استطاع الإمام الخميني أن يراهن على إسلامية شعبه وصدقه «و إخلاصه لدينه الذي لم يأت عبرانقلاب أسود كما يحصل في الكثير من الأمم والشعوب ولا عبرثورة بيضاء... و إنما جاء عبرتضحيات عزيزة وغالية وعبرأنهارمن دماء زكية أريقت على منحى هذا الدين العظيم سعيًا لتطبيقه على وجه الأرض» [١٤].

د- توظيف المنظمات الدولية :

أدان الإمام الخميني أهم المنظمات الدولية وجرّدها من مصداقيتها واعتبرها منحازة لإسرائيل بدعم من الدول الكبرى. ولاحظ أن حق الفيتو ظل سيفًا مسلولاً توظفه الولايات المتحدة لمواجهة كل إدانة أو انتقاد يثيرحفيظتها، وهذا الدور السلبي وجه من وجوه الصلف السياسي المتنافي مع مبدأ المساواة، إنه حريص على إزالة الوهم الذي تكرسه وسائل الإعلام الرسمية حول دورتلك المنظمات كاشفًا قصورها وتحولها أداة في أيدي الظالمين «ولا يظن أحد أن المنظمات الدولية المشكلة كالجمعية العامة للأمم المتحدة ومنظمة حقوق الإنسان وما شاكلهما قد خطت خطوة واحدة لصالح الشعوب ولا تظنوا أنه لإدانة هذه المنظمات أي تأثير في وقف الجرائم والخيانات الإسرائيلية أو الحد منها» [١٥].

هـ- زرع الكيان الصّهيوني في قلب الوطن العربي :

يتحدى الإمام الخميني الكيان الإسرائيلي الهش بتعريته وبيان تحالفه من أجل مزيد من النهب لأراضي الشعوب وثرواتها وقد أدان الصهيونية في جلّ ما كتب وفي ما صدرعنه من مواقف وشهّربالصهيونية «التي تحكم العالم غصبًا وعدوانًا والتي اتخذت من الحروب والاعتداءات وسيلة للوصول إلى أهدافها، وتعتبرمسؤولة عن الجرائم اليومية التي تقع في المنطقة الإسلامية» [١٦] وقد نبه الإمام الخميني إلى

تورط إسرائيل في النهب المقنن والشامل لالثروات الأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة و إنما في جميع أنحاء العالم وخصوصًا العالم الإسلامي، وقد اعتبر إسرائيل «**جرثومة فساد**» و«**دويلة فاسدة وغاصبة**» و«**غدة سرطانية**» [١٧] يتحتم استئصالها لإراحة الجسد العربي منها، ويحمل الغرب مسؤولية زرع ذاك الكيان في الجسد العربي ، فكانت فعلته كما قال الإمام الخميني «**ذنبا عظيما**» [١٨] سبب آلامًا جسامًا.

٢- كيفية مواجهة العتوالغربي في فكرالإمام الخميني :

أ- إحداث يوم القدس في آخرجمعة من كل رمضان : توصية الإمام التي تبنتها منظمة التعاون الإسلامي :

ظلت القضية الفلسطينية محورية في خطابات الإمام الخميني وحافظت الثورة الإيرانية إلى يوم الناس هذا على هذا المكسب، وقد كثف الإمام من الإجراءات الداعمة لمنظمة التحريرالفلسطينية، وكانت له مراسلات مع الراحل ياسرعرفات، واقترح على كافة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يتحدوا من أجل فلسطين، وورد في الخطاب الذي ألقاه احتفاء بيوم القدس الذي انطلق يوم ١٩٧٩/٠٨/٠٩، أن «يوم القدس يوم يجب فيه أن يستعد المستضعفون لمواجهة المستكبرين» [١٩]. وكان الهدف من هذه الحماسة الحازمة تفعيل القضية الفلسطينية وتبنيها من قبل مليارونصف من المسلمين وسترهب العدو، ومن اللافت للنظرأن يوم القدس يكتسي صبغة كونية لا من منطلق تدويل الاهتمام بالقضية الفلسطينية فقط والتجنّد للدفاع عن الأرض السليبة و إنما أراد الإمام الخميني من يوم القدس فرصة لثورة المستضعفين والمضطهدين على جلاديهم ومبتزي حقوقهم ولهذا السبب وجه الإمام الخميني منذ السنة الأولى ليوم القدس (١٩٧٩) نداء يطلب فيه من القوى الكبرى «في يوم القدس أن ترفع أيديها عن المستضعفين وتلزم مكانها» [٢٠].

لقد أراد الإمام الخميني من يوم القدس بناء سدّ منيع يوقف به العيث الغربي

والعبث الصهيوني ودعا إلى تكثيف المسيرات و إقامة المجالس في أنحاء العالم الإسلامي والمظاهرات في موسم الحج والحفلات والتجمع في المساجد، وكان ذلك كله في إطارتجاوز إرادة العجزالتي بُليَ بها المسلمون والمجاهرة بالرفض وكل ذلك موجه «ضد الاستكبارالعالمي و إسرائيل بالخصوص» [٢١] ولاشك أن تأجج الاحتفال بيوم القدس في جميع المدن الإسلامية سيساهم في محاصرة المغتصبين، وربما تراجع خوف المسلمين من مواجهة من اعتبروها قوى ضخمة تعسر زحزحتها، ولذلك ثارالخميني على هذا السلوك المتخاذل ودعا المسلمين إلى أن يخرجوا من رؤوسهم «ما يُقال من أنه لا يمكن مواجهة الدول الكبرى» [٢٢] وخاطب المسلمين بقوله «صمّموا على ذلك تقدروا لأنّ الله يدعمكم ويحميكم» [٢٣].

ب- المقاومة الشاملة ضد أهداف شاملة :

دعا الإمام الخميني كافة المسلمين والشعوب المضطهدة إلى الثورة العارمة حتى يكون مصيرها مثل مصيرالشعب الإيراني الذي أعلن ثورته ضد الاستبداد وسلب الحريات والذي يعتبرجزءا لا يتجزأ من العرب والمسلمين «إننا لا يمكننا فصل أنفسنا عن سائرالمسلمين فكل ما قدمناه من شهداء ومعوقين ومشردين كان من أجل الإسلام، ونحن لا نعتقد مصيرالشعب العربي ومصائرالشعوب الأخرى منفصلة عن مصيرنا وقدراتنا»، ومما يدفع الإمام الخميني إلى الدعوة إلى الثورة عدم استجابة الأنظمة الرسمية في العالمين العربي والإسلامي لنداءاته المتكررة قبل الثورة الإيرانية وبعدها، فهو يخاطب تلك الحكومات من منطلق العالم النصوح قائلا «فيا أيتها الحكومات أخرجي من مخيلتك فكرة الاستئثاربالسلطة وفكري بصالح شعوبك» [٢٤] وسرعان ما ينفض يديه من تلك الحكومات المهيمنة على السلطة والثروة والمتصارعة فيما بينها والواقعة في فخاخ نصبها لها المستعمرون ترتبط بالحدود والاقتصاد والسياسة والاجتماع، والممارسة لشتى أشكال القهر والنهب للثروات الإسلامية الطائلة ولذلك فما دامت «مشكلة المسلمين قائمة في

حكوماتهم المتسلطة عليهم وفي الاختلافات الحادة بين رؤسائها وأنظمتها»[٢٥] ومادامت تعاني اليوم كما يقول الإمام الخميني «من منافقين أكثرجرمًا من أهل النهروان (...) ويضربون الإسلام باسم الإسلام ويساومون أعداء الإسلام باسم الإسلام وفي الحقيقة ينهبون أموال الشعوب المظلومة المحرومة ويضطهدون أحرار الشعوب»[٢٦] ما دام كل ذلك يحدث على مرأى ومسمع مئات الملايين من أبناء الأغلبية الإسلامية الصامتة، لزمت الثورة الشعبية أولا على مستغليها للنجاة من «**مخالب هؤلاء الحكام**»[٢٧] ووجبت المقاومة الشاملة العارمة للعتو الغربي الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية لأن «مطامع أمريكا لا تقتصرعلى دولة واحدة أو دولتين بل إنها تريد إخضاع العالم كله لسيطرتها واليوم نعتقد أنه، يجب على المسلمين أن يتحدوا ويقفوا في وجه أمريكا وليعلموا أنهم قادرون على ذلك حيث أنهم يمتلكون القدرة على هذا الأمروالإمكانيات الموجودة عندهم كثيرة ويكفي أن شريان الحياة لأمريكا والغرب متعلق بنفط هذه المنطقة»[٢٨].

ومن دواعي نجاح هذه الجبهة تعلقها بالقرآن الكريم لأن له قدرة تعبوية لا حدّ لها وفيه دعوات صارمة لمقاومة المستكبرين ودفع المستضعفين في الأرض لإعلان ثورتهم على جلاديهم ويوسع الإمام الخميني نطاق هذه الدعوة لتشمل كل الساخطين والمحرومين في العالم لأنه لو التزم المسلمون جميعهم بالإسلام وسواء كانوا تركًا أم عربًا أم عجمًا، وسواء كانوا إفريقيين أم أمريكيين أو من أي مكان كانوا فإنهم قادرون على قلب الموازين وتحقيق النصرالمبين.

ج- تجنيد العلماء باعتبارهم ضميرالأمة :

يراهن الإمام الخميني في ثورته الخرساء (Sourde Guerre) ضد المستأثرين بالثروة والقرار، على العلماء الذين يمتلكون ناصية الحقيقة بعيدًا عن تلاعب السياسيين ومخاتلتهم، فهؤلاء العلماء المؤتمنون على شعوبهم والرافضون أن ينخرطوا في دوامة الاستبداد، أو أن يتخصصوا في لعب دورالشيطان الأخرس في

حضرة "الشيطان الأكبر"، إنهم قوة في التغييروقلب الموازين ومواجهة العيث والعبث، لها في فكرالإمام الخميني كل ضمانات النجاح والرجحان لأن «الشيء الوحيد الذي يمكن أن يكون سدّا منيعا في وجه الأجانب والاستعمارويمنعهم من سلب ذخائرالأمم الإسلامية هو الإسلام وعلماء الإسلام الأجلاء»، لقد حمّل الخميني علماء الإسلام شجب الظلم والتعسف وتعرية كل تحالف مع أعداء الإسلام وسيادة الأقطارالإسلامية، والتشهيربالعملاء المحليين لإسرائيل وانتهى إلى إعلان الاحتجاج الشديد على «عمليات الإعدام والقتل والإبعاد الجماعية وشجب المحاكمات الصورية وأحكامها الجائرة وشرح أوضاع البلاد والحالة المعيشية التي تعاني منها الجماهيرالفقيرة الأمرين، وغيرذلك من مبادرات تمس حياة الناس ومصيرهم، إن هذه كلها هي في صلب واجبات علماء الدين» [٢٩].

ولكن إلى أي حدّ كان علماء المسلمين ـ خصوصا علماء الشريعة ـ أوفياء للأمة، كبارًا في عيون الحكام الذين استقطبوا الكثيرمنهم لينخرطوا في دوامة الولاء والتسويغ والتبرير!!!

لقد كرس الإمام الخميني حياته لخدمة العالم الإسلامي واعتبرالثورة الشعبية العارمة أفضل سبيل لتستردّ الشعوب سلطتها، ورأى أن لا خلاص من الكرب العظيم إلا بالاستعداد بالقوة لمواجهة إرهاب عنيد مستندًا في ذلك إلى قوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وقد التزم بما قاله وأُشْرِبتْ قلوبُ الإيرانيين الذين أعلنوها ثورة عارمة حُبّ تلك المبادئ، ولذلك ولدت الثورة الإيرانية كما لاحظ روجيه غارودي الخوف والكراهية في الغرب (la peur et la haine) لأنها أربكته ولم تكرس العنف الثوري، و إنما وظفت القوة الدينية السلمية لمواجهة القوة العسكرية والمادية، واحتمت برموزها فكانت تحديًا صارخًا لأعتى القوى في العالم وهازمة لخامس قوة عسكرية في العالم (النظام الشاهشاهي) وكان تجاوب الشعب مع قائده

وانخراطه في المسارالثوري الخلاق سبيلا إلى نجاح الثورة الإيرانية التي مرت عليها أكثرمن ثلاثة عقود، ولم تفلح كل محاولات التثبيط والتآمرفي إفشالها أو الإطاحة بها حتى يوم الناس هذا.

القسم الثاني : العتو الغربي في فكر الشيخ محمد الصالح النيفر

يعتبرالشيخ الزيتوني محمد الصالح النيفرأحد أهم مؤسسي الحركة الإسلامية التونسية الحديثة والحاضن في بيته لعشرات الطلائع الشبابية الإسلامية التي تعلمت منه شعائرالدين ومكارم الأخلاق وشحنها لتجاهربالدفاع عن الحق وعدم الخوف من المستبدين والجلادين، وقد ظل حتى وفاته مناضلاً بالقلم والعمل لا يخشى في الله لومة لائم، يندد بكل أشكال الاستفراد بالرأي ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة الموعظة الحسنة ويسخّر كامل وقته لخدمة الإسلام وقضاياه لقد كانت له الجرأة المتجددة المتجذرة لتنبيه الغافلين من أبناء تونس والمسلمين إلى حقيقة المخططات الاستعمارية وتاريخ جرائمها، وعدّد مظاهرالتهورالغربي واستهدافه لأراضي المسلمين وعقولهم و إمعانه في استنزاف خيرات الشعوب الإسلامية، ولم يكتف الشيخ النيفربالإدانة وكشف مظاهرالتلبيس والتفليس و إنما سعى إلى الرد وبيان كيفية مقاومة العتوالغربي الذي يلاحق المسلمين في عقردارهم منذ عقود كثيرة، ولم يتوفقوا إلى يوم الناس هذا لإيقاف اعتداءاته وجرائمه في حق المسلمين الذين تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى.

١- مظاهرالعتوالغربي في العالم الإسلامي :

أ- المراهنة على التبشيروالتعليم :

كان الشيخ النيفرالذي واكب الاستعمارالفرنسي عن كثب في تونس متفطنًا لما كان يقوم به المبشرون الفرنسيون خصوصًا من نشاط منقطع النظير منذ القرن التاسع عشرمن أجل تنصيرأبناء المسلمين وتهيئة الأرضية الملائمة

لانتصاب الحماية في تونس. وقد اضطلع بهذا الدور بامتياز الأب فرانسوا بورقاد (François Bourgade) والكاردينال لافيجري (Cardinal Lavigerie) الذي تنازل للاتكيين عن معهد سان لوي (كارنو لاحقًا) مقابل مال وفير لبناء كنيسة تونس (Cathédrale de Tunis) المتربعة في مستهل شارع الحبيب بورقيبة، قبالة بناية الإقامة العامة الفرنسية بتونس؟ وواصل "الآباء البيض" الذين أطرهم لافيجري وجعل لهم تنظيمًا لنشاطهم بحرية في تونس إمعانًا في التنصير، وقد تصدى جيل محمد الصالح النيفر للأبوين المبشرين سلاّم وفوكا وندد بالمؤتمر الافخارستي (١٩٣٠) المنعقد بتونس، وقد كان الشيخ محمد الصالح النيفر مترصدًا لنشاط مركز تبشير البروتسانت في بداية نهج الجزيرة بعد قوس باب بحر[٣٠]. من مآثر الشيخ النيفر في مقاومة التبشير "دار الرضيع" التي وقى بها كثيرًا من الأطفال التونسيين الذين لا سند لهم من الوقوع في أيدي المبشرين، ولذلك بيّن أن من أهم مخططات الاستعمار ما يقوم على أسلحة متنوعة وأقواها "**التبشير والتعليم**"[٣١] وتلازم التبشير مع التعليم أملاه حرص المبشرين على تكييف من يعلمونهم بما يتماشى مع تحالف الكنيسة والاستعمار رغم صراعهما في الغرب، فالمتعلمون يعلَّمون تعاليم كاثوليكية تمهيدًا لتعميدهم ثم تنصيرهم ثم يلقنونهم تعليمًا يخدم الأغراض الاستعمارية التوسعية.

ولذلك يعتبر الشيخ النيفر أن هذين الرافدين كفيلان بفسخ هوية الأجيال تمهيدًا لإفساد الشعوب من أجل تفكيك الأمة الإسلامية حتى يسهل على الغرب احتواؤها، إلى جانب التشكيك في دينها والسعي لإبعادها عن ممارسة فروض الإسلام"[٣٢].

ب- تجنيد المستشرقين وأتباعهم لمحاربة الإسلام

أكد الشيخ النيفر أن هذا الحرص يمتد أكثر من سبعة قرون، وبيّن العيث الذي مارسه الأوروبيون لتمزيق أوصال المسلمين ولاحظ أن ما يثير حفيظتهم بقاء الإسلام في الكثير من الأقطار التي كانت بالأمس مسيحية تحت هيمنة القيصر،

فالإسلام على امتداد تلك القرون السبعة «يحاربه أعداؤه حربًا لا هوادة فيها» وقد استولى الأغيارعلى ربوعه وعقدوا المؤتمرات والمؤتمرات لاقتسام تلك الربوع حتى جاءت أزمان لم تبق فيها أمة مسلمة تمتلك سلطة في بلادها، ومع ذلك كله فالإسلام باق في الأمم المتنوعة والأجناس المختلفة التي اعتنقته»[٣٣].

وكان عدد كبيرمن المستشرقين أداة طيّعة في أيدي الاستعماريين ينفذون مخططاتهم، ولكن الشيخ النيفريستند في كثيرمن المواضع بمن يراهم منصفين عقلاء من المستشرقين الذين كان دفاعهم عن الحقيقة غالبًا على أمرهم، فأقروا حقائق عن الإسلام ودوره في الغرب وفضله عليه، بينما يتعمّد التكتم عنها المتعصّبون منهم، وقد ضرب الشيخ النيفرمثلاً بليغًا وغريبًا في الآن نفسه ويتجلى ذلك مواكبته سنة ١٩٣١ لمؤتمراللغة العربية[٣٤] الذي أشرف عليه المستعرب الفرنسي وليام مارسي (William Marçais) مديرمعهد اللغة العربية والترجمة بالعطارين (بمقردارالكتب الوطنية سابقًا) وكان مارسي رئيس المؤتمر«يعمل على تعويض اللغة العربية باللغة العامية لغة البلاد الرسمية وقد أشاد الشيخ النيفربمحاضرة للشيخ الحنفي أحمد بيرم الذي فاجأ بها الجميع وأبهرت التونسيين وكان عنوانها "حياة اللغة العربية" وقد فنّد وجهة نظرمارسي ودحض حججه مما اضطرب له المستشرقون الحاضرون وأعوانهم وكانت تلك الخطبة التي اهتزلها الشعب التونسي وساندها مزلزلة لأركان المؤتمروقاضية على غايته»[٣٥].

وليس غريبًا أن يكون لهؤلاء تلامذة أوفياء ومنهم من أمعن في خدمة تلك المساعي على حساب الهوية والوطنية.

لقد أطلق الشيخ العنان للتعبيروالنعوت النابية نكالا في هذا الرهط من الأتباع المدافعين وهم أكثرخطورة من المستشرقين أنفسهم وقد اعتبرهم الشيخ النيفر «متهالكين على أعتاب الغرب المنهارة، استحدثوا ألفاظًا تملقوا فيها حضارة الغرب ولم يوفقوا حتى في تملّقهم هذا».

ج- اعتماد الحرب النفسية:

لاحظ الشيخ النيفرأن من دهاء الغرب ألاّ يشن هذه الحرب النفسية القائمة على ترسيخ إرادة العجزانطلاقًا من نفسه و إنما يفعل ذلك بالوكالة وذلك باصطناع أدوات طيعة ويكون تمريرذلك على ألسنة «أفراد منتسبين إلى الإسلام ليسهل قبوله وذلك بأن يقولوا إن الإسلام قوي في روحه ومرماه ولكن قد انتهى دوره العملي في الأحكام والقوانين».

فهذه الحرب النفسية متعددة الأغراض وبناء على ما سلف فإنها تولّد إحساسًا بالقصورالتشريعي ليفتح الباب أمام تشريع بديل وهو التشريع الوضعي، كما أنها تسعى إلى تسريب إحساس بالميل إلى الآخرالمتفوق ولذلك سهل تحويل العالم الإسلامي المرتبك "سوقًا للاستهلاك لاللإنتاج" [٣٦] وذلك بالتشجيع على الترف والاقتراض واستعمال "الكميبيالات" كما يقول الشيخ النفيروهي من أهم المكبلات لشعوب تعاني من الديون الثقيلة نتيجة اللهفة على الاستهلاك ومعاناة حكوماتها من القروض الأجنبية المتفاقمة فوائدها مع عجزدائم في الميزانيات وسخاء لا حد له في الإنفاق على الأمن وحماية أولي الأمر.

وقد لاحظ الشيخ النيفرأن هذا الاختراق اكتسح العالم الإسلامي أمام ما يعانيه المسلمون من فراغ أخلاقي «وبذلك تمكنت الحضارة الغربية من الدخول الى كامل المجتمعات وحتى البيوت والمخادع»[٣٧] لقد نجح الغرب في ذلك بتوظيفه المكثف للدعاية بواسطة كبريات الصحف ووسائل الإعلام تنضاف إليها الوسائل الرقمية.

د- فتح باب الاجتهاد العصري :

اعتبرالشيخ النيفرأن دعوة الغرب إلى فتح باب الاجتهاد العصري يهدف إلى اختراق القرآن بعنوان "حرية التفكيروالتعبير" ويعتبرهذه الدعوة مقدمة لمشروع غربي يهدف إلى زرع الفتنة وتكريس فكرة الإتباع والاجتهاد في تنفيذ ما يروق للغرب، ونجد هذه الفكرة واضحة المعالم في المقامة الاجتهادية التهكمية على

الطريقة الهمذانية، وقد نشرها الشيخ النيفرفي مجلة العالم[٣٨] ومفادها أن جبارًا «من حكومات الدنيا الجديدة الذين ضاقت بأطماعهم بلادهم عمل لاستعمار الأراضي في الطول والعرض بحثًا عن الدمى المطواعة من بين العباد وقد كان قومه من الأغراب(الغرب) يمتصون من دماء المسلمين وخيراتهم والأقوام يرزحون في مذلتهم وسباتهم»[٣٩].

ويجري هذا الجبارحوارمع ابن الشاطئ المهمل المحتارلتتكشف ملامح الاجتهاد الغربي من أجل مزيد من العتو والاستغلال مركزًا اجتهاده على مقاومة مصدرالقوة في الإسلام وذلك من خلال قوله «إن هذا المارد (الإسلام) مكين القوى لا يهدّ ركنه إلا إذ جُرد من المحتوى فينحل سنده الداخلي الجباروبقى دون سورولا جدار».

لقد بين الشيخ النيفرأن الدافع إلى هذا الاختراق من جهة والإقصاء من جهة أخرى جعل المسلمين بلاوزن ولا قوة وحال دون تطبيق الشريعة الإسلامية خصوصًا أنها كما قال الشيخ "جامعة لشرائع الله وخاتمتها"[٤٠].

هـ- زرع الكيان الصهيوني في الجسد العربي الإسلامي :

لم يحررالشيخ محمد الصالح النفيرفي الصهيونية أوالقضية الفلسطينية كتبًا أورسائل مطولة، ولكن ما قاله حول فلسطين والصهيونية في إطارحديثه عن هيئة الأمم المتحدة ينضح تنديدًا وتعرية لتحالف الغرب مع الصهاينة وتورطه في المظلمة الكبرى التي لا يزال يعاني منها الفلسطينيون.

أكد الشيخ النيفرتآمرالغرب لا على عشرات الشعوب واحتلالها واستنزاف ثرواتها بل على الإنسانية قاطبة من خلال الهيمنة على عصبة الأمم المتحدة ثم هيئة الأمم المتحدة واتخاذها مطية لتحقيق أغراض سياسية تقوم على الهيمنة والاستكبار: هذا الاحتواء يتضارب مع أدنى حقوق الشعوب والأفراد.

لقد اعتبرالشيخ النيفرالصهيونية أوالكيان الصهيوني مدللا في المنتظم الأممي:

ولاحظ أن هذا الجسم الغريب الذي تم زرعه وسط الجسد العربي يتمتع بأبشع الصفات المنفرة :

فهو صهيوني النزعة، شرس الأخلاق، جمع صفات الشراسة، عدواني الطباع ، والوحشية والعدوانية والشهوانية، نهم الشهوات ، «دللوه فتراه يصخب ويزمجر ويهزأ بقرارات هذه الجمعية التي أوجدته من عدم وأمدته ولا تزال بكل ما يحتاجه في عدوانه»[٤١].

تجدر الإشارة إلى تهجم الشيخ النيفر على بعض الدول العربية التي ترفّع عن ذكرها، وهي التي تتجاهل ما فعله معها الصهاينة و«حاربها في عقر دارها وافتكّ من أراضيها، أخذت تبادله وتسعى إلى مرضاة هذا الكيان المدلل وتدعوله واحدة تلو الأخرى»[٤٢].

لا يكتفي الشيخ بالمجاهرة بعدم اعترافه بالكيان الصهيوني والتهكم من الدول العربية التي "تبادله الود" و إنما يحضّ تلك الدول بل يطالبها من منطلق العزة الإسلامية والدفاع عن الكرامة العربية[٤٣] إلى «طرد هذا العضو الفاسد وبتره من الأمم المتحدة».

لقد ناديت لو أسمعت حيًا ولكن لا حياة لمن تنادي

ومن اللافت للنظر أن الشيخ النيفر يتمادى في إدانة المنتظم الأممي إدانة لاذعة وذلك من خلال نص يبدو أنه شارك به في أصفهان بإيران أو اكتفى بإرساله إلى محمود مكي زاد رئيس إدارة العلاقات العلمية والدولية بجامعة أصفهان وهو في الثمانين من عمره وهذا الخطاب موجه للشباب المسلم « ليتبين مسالك الهدى»[٤٤].

كان ابن الثمانين ثائرًا غير هياب من سطوة الغرب، وقد نعت هيئة الأمم المتحدة متهكما بأنها «عصبة السوء» واعتبر «عصبة الأمم المتحدة» ثم هيئة الأمم المتحدة آلتين اصطنعهما العتوّ الغربي لممارسة الإجرام القاضي على الاعتداء على الشعوب المستضعفة، تلك التي «سُلبت منها حريتها وأموالها وأراضيها»[٤٥] ولا يخفى

استحضارالشيخ للأراضي الفلسطينية المحتلة ولذلك طالب تلك الهيئة الدولية المتخاذلة بتنفيذ القوانين المطالبة صنيعتهم إسرائيل «بالخروج من الأراضي التي افتكها واقتطعها من البلاد العربية الإسرائيليون عن إذن وعون وتشجيع من تلك الأمم الباغية»[٤٦].

ولا خفاء أن زيارته إلى طهران للمشاركة في احتفال الإيرانيين بالذكرى الثالثة لنجاح الثورة الإسلامية الإيرانية وتحديه لعتو أمريكا والغرب وتنديده مثلما أسلفنا بالمنتظم الأممي راعي مصالح إسرائيل ومهين العرب وعديد الشعوب واستجابته لدعوة إيرانية للحضورفي احتفالات السنة الرابعة للثورة الإيرانية، كل ذلك كان كفيلا بحرمانه من السفروافتكاك جوازسفره الذي لم يتسلمه حتى وفاته، أليس ذلك غيض من فيض العتو الغربي الذي رافقه عتو داخلي عانى منه الشيخ في تونس دون أن تلين له قناة أو ينتابه نكوص السفهاء و إن بلغ من العمرعُتيا...

٢- طـرق مقـاومـتـهـا :

أ- بترُ يدِ اللصوصيّة الكبرى :

اعتبرالشيخ محمد الصالح النيفرأن الغرب أمعن على امتداد عقود كثيرة في استنزاف ثروات المسلمين وتعطيل ساعة خلاصهم، واتهم قلب الغرب بالعتو وبمرض يعسرالشفاء منه وهو "الشره والشرّ"[٤٧] ورافقت ذلك غشاوة من المكروالخديعة غشّت بصره، ولذلك دعا الشيخ النيفر إلى بتر كل يد تروم العبث بثروات المسلمين واجتهد في تأويل قوله تعالى ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا﴾[٤٨] فتجاوز حكم الآية المألوف وحمّله معنى تأويليًا رمزيًا يحمل في طياته صرامة الرد والحزم في مواجهة العائثين في ثروات الشعوب فسادًا، وقد أدان إدانة شديدة تلك الشهوانية المفرطة وتحسرعلى الذين يتبعون تلك الأيدي العابثة إتباعًا ذليلاً وغير واع وأضاف أن هؤلاء المستكبرين الطغاة لو دخلوا «جحرضبّ لدخله المستضعفون تبعًا لهم وتقليدًا»[٤٩].

ب- المراهنة على القوة الربانية :

ينطلق الشيخ محمد الصالح النيفرمن إيمانه العميق بالمعاضدة الربانية ومن قوتها الخارقة التي تتجسم في قوله تعالى "النصرمن عند الله" وصحيح أنها قوة غير منظورة ولا تدركها حتى أحدث الوسائط الرقمية وأدقها ولكنها قوة نافذة وقالبة للموازين، وذكرالشيخ النيفربأن العرب عندما انتقش الإيمان في قلوبهم دكوا في عقود قليلة أعتى الإمبراطوريات في العالم وكانت تفوقهم عددًا وعتادًا.

إن القوة الربّانية لا يحسب لها في نظرالماديين حساب لأنهم يعتقدون أن العبرة في قوة السّلاح والعتاد والعباد ولكن الرّوح لها أيضًا دور كبيرفي توجيه الجيوش واقتلاع النصر، ويرى الشيخ النيفرأن الله ينصرمن نصره وأنه ﴿معكم أين ما كنتم﴾ كما ورد في القرآن الكريم. فكيف يريد المسلمون النصرعلى أعدائهم وقلوبهم خلو من القرآن !!!

ج- رفع لواء العقل :

كان الشيخ محمد الصالح النيفر كثيرالاحتكام إلى العقل والمنطق يتجافى الهوى و إطلاق الأحكام وقد استدل في كثرمن دروسه وكتاباته بنعمة العقل وكان يحث طلابه ومريديه باستمرارعلى إعمال العقل والمحافظة عليه مبينا أن الإسلام يصون العقل و«يرسم له سبيل التفكيرالسوي فإن العقل متى سيطرعليه الهوى كان أفتك سلاح بيد الإنسان وأفظعه»[٥٠].

إن الشيخ النيفريتوسّل إلى جانب العقل بالمنطق والقياس ويدعوإلى التدبرفي الصحوة الإسلامية الحديثة متعجلا إعلان ساعة نهاية الغرب وسلطان حضارته، ويرى أن القضاء على الغرب سيكون بفضل هذه الصّحوة الشبيهة بصحوة المسلمين الأولى التي «كانت قضت من قبل على حضارتي فارس وبيزنطة»[٥١] إلا أن القياس بين الحقبتين يحتاج إلى استحضارلعدد من التداعيات والظروف التي يمليها كل عصر.

ملاحظات ختامية :

شكّلت آراء كل من الإمام الخميني والشيخ محمد الصالح النيفرمساهمة صادقة وعملية لمؤازرة القضية الفلسطينية والتنديد بالعتوّ الغربي الذي كان حليفًا لليهود ونصيرًا للصهيونية وقد كشف هذان العالمان العمليان الوجه البشع للغرب ولإسرائيل وأدانا الحضارة الغربية وفلسفتها وقيمها العرجاء مبينين أنها أوقعت الإنسانية في مآزق لا تحصى وأن الصحوة الإسلامية (Le réveil religieux) أتت لاستعادة قيم فقدها الإنسان لفرط هيمنة النزعتين المادية والوضعية عليه.

لقد وُفق الإمام الخميني في تجسيم المبادئ التي نادى بها لأنه استطاع قيادة العقل الخلاق والروح المتمردة في اتجاه السيادة والريادة والاحتكام إلى سلطة الشعب المحتكم بدوره إلى الشريعة الإسلامية، ثم إن تلك الثورة بعد ٣٤ سنة من بناء كيان الدولة الاسلامية استطاعت الصمود والتصدي رغم محاولات التصديع المتجددة.

أما الشيخ الحازم محمد صالح النيفرفقد ظل وفيًا لمبادئه غيرمكترث بإغراءات بورقيبة ونظام الحماية، مدافعًا عن القضية الفلسطينية بالقلب واليد واللسان، فكان له شرف تنبيه الغافلين إلى الوجه البشع للاستعمارالغربي والاستيطان الصهيوني، وفي الوقت الذي التفت به الشبيبة التونسية التي احتضنها في بيته إثرعودته من الجزائرليشد أزرها ويطلق شرارة الحركة الإسلامية الواعدة في سبعينات القرن الماضي بتونس، تعرض الأب الروحي والمؤسس الفعلي لحركة الاتجاه الإسلامي إلى ألوان من الحجروالإقامة الجبرية والمراقبة والمعاقبة والتهميش وناله من الضّيم في دولة الاستقلال ما لم ينله في عهد الحماية الفرنسية، فكان وضعه مثل وضع الشيخ عبد العزيزالثعالبي الذي عاد من الشرق في صيف ١٩٣٧ وقد امتلأ وطابه علمًا وتجارب وبدائل أراد إهدائها لأبناء بلده، فما لقي غيرالتثبيط والإقصاء ومحاولة الاغتيال في مدينة ماطرفمات الرجلان المناضلان وقلباهما من حسرة يتفتتان على شعب هدّارللفرص مصاب بعشاق السلطة والتهافت على الجاه والظهوروالمتع الزائلة على حساب القيم الخالدة وما يمكث في الأرض.

الهوامش:

١- في السور التالية :
الطلاق الآية ٨ ، الأعراف الآية ٧٧ و١٦٦، الفرقان الآية ٢١ و٣١، الداريات الآية ٤٤، الملك الآية ٣١.
٢- ابن منظور، *لسان العرب* القاهرة : دار المعارف (دت) ص ٢٨٠٤:
٣- الخميني، آية الله، *الإمام في مواجهة الصهيونية*، مقتطفات من خطب حول الديمقراطية (ترجمة خضر نورالدين) طهران : مركز إعلام الذكرى الخامسة لانتصار الثورة الإسلامية في إيران، ١٤٠٢ هـ ص: ٣٥.
٤- الأسدي، مختار. *الثورة في فكر الإمام الخميني*، ط ٣، طهران : مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني، الشؤون الدولية، ٢٠٠٣، ص : ٤٦.
٥- الخميني، آية الله. *الإمام في مواجهة الصهيونية* (ترجمة خضر نورالدين)، صص : ٦٨-٦٩.
٦- المصدر نفسه، ص : ٤٩.
٧- المصدر نفسه والصفحة نفسها.
٨- العلمنة : sécularisme.
٩- الأليكة : laïcisme.
١٠- الوضعنة : positivisme.
١١- الخميني، آية الله. *الإمام في مواجهة الصهيونية*، ص: ١٠٣.
١٢ - المصدر نفسه والصفحة نفسها.
١٣ -الخميني، آية الله. *الإمام في مواجهة الصهيونية*، ص : ١١٩.
١٤ - الخميني، آية الله. *الإمام في مواجهة الصهيونية*، ص : ١١٩.
١٥ - الخميني، آية الله. *الإمام في مواجهة الصهيونية*، ص : ١٤٤.
١٦ - المصدر نفسه، ص : ١٣.
١٧ - المصدر نفسه، ص : ٦٩.
١٨ - المصدر نفسه، ص : ٢٨.
١٩ - الخميني، آية الله. *الإمام في مواجهة الصهيونية*، ص : ٩٢.
٢٠ - المصدر نفسه، ص: ٩٣.
٢١ -الخميني، آية الله. *الإمام في مواجهة الصهيونية*، ص : ١٢٥.
٢٢ - المصدر نفسه، ص : ١٤٠.
٢٣ - المصدر نفسه الصفحة نفسها.
٢٤ - الخميني، *آية الله. الإمام في مواجهة الصهيونية*، ص : ١٤٣.
٢٥ - الخميني، *آية الله. الإمام في مواجهة الصهيونية*، ص : ١٤٤.
٢٦ - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

٢٧ - المصدرنفسه والصفحة نفسها.
٢٨ - المصدرنفسه، ص : ١٩١.
٢٩ - الخميني، آية الله. *الإمام في مواجهة الصهيونية*، صص : ٢٥-٢٦.
٣٠- التميمي عبد الجليل . *محمد الصالح النيفرأحد رواد الحركة ....والملتزمة في ضوء شهادته الشخصية*، تونس المحلية التاريخية المغاربية ص: ٣٤، ع : ١٢٥ ، ص ٥٥
٣١- النيفر، محمد الصالح، *رؤى ومواقف* ، ط١،(د.ط) ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧ ، م ٢ ، ص ٦،
٣٢- النيفر، محمد الصالح. *رؤى ومواقف* ، ص ٦
٣٣- المصدرنفسه، ص: ٢٤،
٣٤- يحتفظ الشيخ في أرشيفه ببرنامج مؤتمراللغة العربية المنعقد في دارالجمعيات (دارالثقافة ابن خلدون).
٣٥- النيفر، محمد الصالح. *رؤى ومواقف* ، ص ٣٨،
٣٦- النيفر، محمد الصالح. *رؤى ومواقف* ، ص ٢٧
٣٧- النيفر، محمد الصالح. *رؤى ومواقف* ، مج ٣ ص ٣٨،
٣٨- العدد ١٠٣، لسنة ١٩٨٦،
٣٩- النيفر، محمد الصالح. *محاضرات وأدبيات*، مج ٣ ص ٢٤
٤٠- المصدرنفسه، ص ٣٣
٤١ - النيفر، محمد الصالح. *رؤى ومواقف*، مج ٢، ص : ١٥٤.
٤٢ - النيفر، محمد الصالح. *رؤى ومواقف*، مج ٢، ص ١٥٤.
٤٣ - المصدرنفسه والصفحة نفسها.
٤٤ - المصدرنفسه، ص ١٧٥.
٤٥ - *الكيان الصهيوني العفن*، ص : ١٥٤.
٤٦ - النيفر، محمد الصالح. *رؤى ومواقف*، ج ٢، ص : ١٧٦.
٤٧ -النيفر، محمد الصالح. *رؤى ومواقف*، مج ٢، ص : ٤٠.
٤٨ - سورة المائدة الآية ٣٨.
٤٩ - النيفر، محمد الصالح. *رؤى ومواقف*، مج ٢، ص : ١٧٨.
٥٠ - النيفر، محمد الصالح. *رؤى ومواقف*، مج ٢، ص : ٨٤.
٥١ - النيفر، محمد الصالح. *محاضرات وأدبيات*، مج ٣، ص : ٣٨.